المشروع اللغوي النهضوي المعاصر... مثل من أعمال نهاد الموسى

أحمد فليّح ❖

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٦/٥/١٤ تاريخ قبوله للنشر: ٢٠٠٧/٢/٢٣

Abstract

The contemporary Arabic Linguistic Renaissance Project In Nehad Al-Mousa Works

This paper deals with the project of the possibility of the Arabs to turn in all their activities to classical Arabic, in the writings of Dr. Nehad Al-Mousa especially in his main project and with other helping projects.

ملخص البحث

يتمحور هذا البحث حول إشكالية تحول العرب طراً، إلى اللغة العربية الفصحى، في كل فعالياتهم الثقافية والعلمية، من خلال تسليط الضوء حول بحوث الدكتور نهاد الموسى، في مشروعه الرئيس، قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي، وما آزره من مشاريع لغوية رديفة تصب جميعها في هذا المنحى وتسنده. والهدف هو تفعيل هذا المشروع باستحضاره في أذهان الناس، في هذا الوقت العصيب، وكشف الستار عن شخصية المؤلف الفذة، وتجلية جهوده الرائدة في خدمة العربية.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد النبي العربي الأمين، وعلى آله وصحبه الكرام الميامين.

اللهم لا سهل إلا ما سهلت، إنك إن شئت تجعل الصعب سهلاً، والحزن ذللاً، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

فقد سمت نفسي دهراً، وسمقت همتي حيناً كي أسجل جهود جمهرة من أبناء العربية الذين تخولوها بالدرس والنظر، فنسلت منهم جملة من الطروحات، ورشحت من أقلامهم أفكار، ما أحوج العربية وأهلها إليها. فكانوا رادة ذادة صبراً غيارى حراصاً على العربية، وعلى وضع الأجيال على محجتها الفصحى، وتكلفوا لها جهوداً هي أقعد في باب العلم والمنهج والمشروع المستفز الذي يشقق أجواء، ويستشرف آفاقاً طليعية ريادية. كانوا مصابيح نتهدى بها، وصوى تشخص الدرب، ومشكاة تنير الأفق، وجلهم متحوا من نبع العربية الرقراق، وتشبعوا بها، وانثالت على أقلامهم وألسنتهم ندية رضية انثيال النبع السلس، نظراً وتمثلاً وأداءً، وعكسوا مرآوياً الطبيعة السمحة لهذه اللغة في الاستنباط،

❖ استاذ مشارك/ جامعة جرش/ كلية الأداب/ قسم اللغةالعربية/ الأردن.

ودقة النظر، وعمق السبر، وصدق التلطف، وسوية التنقير والمعاناة المخلصة، والسعي الموصول لإقامة اللحمة بين الإنسان العربي ولغته، وجسر الهوة بين المثقف والعربية الفصحى التي هي موئل وجوده، ومناط هويته، في أساليب متناهية في الفصاحة، والعمق والدقة، يضاهي الأوائل عمقاً وفصاحة، للعبارة عن جمال هذا الحصن الثقافي الذي تلوذ به الأمة، وهو آخر معاقلها وأجله، في هذا الزمان الرديء، الذي تكالبت فيه الأمم علينا بالاستعداء، والتفحيش علينا، وتحييدنا أو تهميشنا أو تغييبنا، وبأخرة طمسنا وأخرجنا من التاريخ، وتركنا في حالة انعدام الوزن، لا لحماً ولا وضماً، تحت ذرائع الانفتاح، والتجديد، والحداثة، والعولمة.

وسيعمد البحث، بإذن الله، إلى رصد هذا المشهد العلمي المستطاب والترشف من مناهل بوحه العذاب، ليقاربها الناس، لعل التراسل والتواصل معها ينبثق منه وعي، ويقظة محركة، تشكم الناس من هذا الانفلات الجامح، لعلهم يهطعون بسوية إلى داعي الخطر المحدق، والأدواء الفاتكة، التي تسعى إلى تقويض كل أمجادنا ووجودنا.

وأنا شديد الذهاب بهؤلاء العلماء الأجلاء، كثير الإعجاب بالبحث في تضاريس جهودهم النافرة الفاقعة، ولعل من أشق الأشياء على الأنام الكلام على الكلام.

والمرء يزهو ويزدهي حين يخوض في غمار هذا المشهد، الذي تجيش له النفس وتهش، لهذه المهايع المتنوعة، والأنظار المتواسعة المبتدعة والأفكار المشرقة بكل شياتها، وتنوعاتها مما أفرزتها قرائح علماء تناثروا في جامعاتنا الأردنية كالنجوم، وعلى رأسهم عنوان هذه الدراسة الدكتور نهاد الموسى، بكل فيوضاته العلمية المشعة منذ ربع قرن ونيف وهو يقف على رأس المشهد، ويقتعد في الذروة، لا يني يبدع ويستحثنا للإبداع، والتحاور، والحفاظ على هذه اللغة، لا يفتر البتة، يعيد تشكيل وعينا.

ولعل من أخطر الأدواء الفاتكة في ثقافتنا، وهو الأمر المؤسي حين "يتحول المثقفون الحقيقيون إلى نخب ثقافية يخاطب أعضاؤها بعضهم البعض في أحيان كثيرة.." (١) متخلين عن المجتمع بكل أطيافه، يتركون أبناءه فرسى التيارات والأهواء، يذرعون في مهب الريح الوافدة تتلعب بهم، أو "التحول من الانتقاء الذكي من ثمرات الحضارة الغربية، منذ عصر النهضة، إلى الارتماء الكامل في أحضان ذلك الآخر" (٢).

إن التوفر على الموروث العربي ينبغي ألا يوقعنا في ثنائية الانبهار بالعقل الغربي ومنجزاته، واحتقار العقل العربي ومنجزاته، مما يوقعنا في شرخ ثقافي معيش بدرجات لا تتفاوت كثيراً من جماعة عربية إلى جماعة عربية أخرى، وبدلاً من منطقة وسطى يأخذ فيها المثقف العربي ما يتناسب مع ثقافته العربية وتراثه الطويل، نجد الغالبية تعيش الثنائية بكل تناقضاتها وفصامها (٣).

أجل الانبهار بالآخر لا يعني بالضرورة احتقار الموروث التالد، المتجذر في الوعي العربي المتطاول.

ويتراءى لي، من غير شؤم أو تعسف، أن جل الناس اليوم هرولوا إلى الآخر يجعلون منه نموذجاً في الثقافة والحضارة، في مناهج النظر اللغوي، بعجرها وبجرها، ومناهج النقد الأدبي، بكل عربدتها الطاغية، أو المتهافتة، ومن وقف في وجوههم كانما أتى بإصر عظيم، ولما حصحص الحق وأفاق الناس من انبهارهم، أخذوا يتلمسون أحوالهم، والحضارة الأخرى تجلدهم، وتفتئت عليهم وتسمهم بالسمات الفاحشة، وتشنع وتفحش عليهم، لعلهم اليوم يربعون على أنفسهم ويهطعون إلى ما نؤذن به ونصدع أبداً: أصلك! أهلك! وإلا تجتث شأفتك " ودعاوى التحديث تستحيل إلى تغريب، والصراع معهم ينقلب

إلى تبعية" (٤).

أما قبل:

فقبل أن نسافر في تلافيف هذا البحث أرجو أن أذكر بعض هذه المحاذير:

١. هذا البحث لا يخامره أي تثريب أو جناح بأنه صفقة نفاقية من أجل ابتزاز منفعة، أو درء مفسدة، أو ردء للوصول إلى مغنم أو دفع مغرم، من قبل أن المبحوث شخصية حية علم من الأعلام، ورمز من رموزنا الثقافية.

٢. أدري أن المعاصرة حجاب، والاستنفاع سمة في هذا العصر الرديء، وأدري أن المجاملة قد تفسد روح الحق، ولكن المحاسبة والمصارحة لا تفسد للود قضية، وقد وقر في روعي أن الكتابة والبحث لا تكون حكراً على القدماء حسب، وأن المعاصرين الأحياء لا يصح نسيانهم وغمطهم، وصرف النظر عن جهودهم المجلية، إلا لكونهم أحياء، بل ينبغي أن يكرم العظماء وهم أحياء، ليزدادوا عطاء، فإذا متع نهار البحث، وذرت الحقيقة قرنها، وانبلج الحق بواحاً، والحق أحق أن يتبع، أحس هؤلاء العظماء قيمتهم وأحقيتهم، فازدادوا نشاطاً، وأمعنوا في العطاء الثر، وما أسوأ أن نتناسى الأحياء، حتى إذا طواهم داعي المنون، واخترمتهم الأيام، طفقنا ننقر في أعمالهم وأمجادهم، أفلا نسكب في آذانهم كلمة الحق وهم أحياء، أفلا نسمعهم صوت الإطراء والاعتراف وهم بين ظهرانينا.

ثم إن عالمنا الجليل الأستاذ الدكتور نهاد الموسى، علامة العروبة في العربية، ليس أقل شأناً من أناس مضوا، وأشبعوا بحثاً ودرساً. فللمنصف أن يحله في أسنى المراتب، وأسمق الطبقات في الدرس اللغوي والنحو في زماننا بل في وزان الجلة منهم. ومن واجبنا ومن حقه وحق الناس طراً أن نذيع فيهم فكره ومناهجه، ونفحاته العلمية الممتازة، إن في التنظير، وإن في الأداء والممارسة. ولعلنا نلتزم الحيدة والإنصاف في قراءة هذا العالم، وفي مقاربة نتاجاته العلمية الذائعة بيننا، في جل مفاصلها. ولن يجرمنا الشنآن ولا المقة على القدح أو المدح من غير ماعلة ظاهرة. وهمنا المرافعة عن الحق، وتخول العروبة والعربية.

هدف البحث:

يستهدف هذا البحث في منتهى أطروحته شخصية فذة، وعالماً مشهوراً من أعلام اللغة والبحث العلمي الجاد المعمق، الذي أنفق دهره منقباً ودارساً ومدرساً أجيالاً من الدارسين والعلماء والباحثين، وما زال ينقر بحرص، تؤرقه هموم العربية يتخولها ليعلي شأنها، فتكلف لها وقته وجهده، وأفرز جملة من البحوث والمؤلفات الفذة تتمحور وتتمركز حول مفاصل اللغة، يجلي ما غمض، ويوضح ما انبهم ويشقق أجواء للدرس، ويستشرف آفاقاً أخر، ويعفي عن الهنات فاستهدف البحث هذه المصنفات والمؤلفات كيما يسهم في تسويقها للناس، وترويجها بين يدي الملأ، ليكونوا على تواصل وانتفاع بكل هذه المعطيات، ليزدادوا معرفة بلغتهم ورموزهم العلمية، وتمتلئ نفوسهم ثقة وابتهاء بمذخورهم العلمي واللغوي، ولتسمو نفوسهم إلى الإسهام بالبناء اللغوي على سمت هؤلاء النخب وسنن مناهجهم، فشخص البحث المسائل الكبرى الأظهر، ورصد موضوعاتها مصنفة، ثم عقب بالتأييد أو التفنيد فكانت أهدافه ثلاثة: تعزيز للعالم وعرفان بفضله، وتجسير بين هذا العالم الفاضل، والشداة بله العلماء من أبناء العربية، ومدارسة وملاحقة هذه البحوث التي أفرزها عالمنا الفاضل كي يكون الناس

على علم سوي بها، فيتاح للبحث أن يستجمع هذه الفوائد في كلياتها، ويعرضها على الناس، وفي ذلكم نفع أي نفع، وتجربة أية تجربة، والتعرف على منهج لا حب، وآلية متبعة يحسن أن تحتذى. بل يجب أن نتقيلها، لندفع بالبحث العلمي إلى الأمام.

منهج البحث:

اصطنع البحث منهجاً لاحباً مألوفاً، قد يلائم طبيعة المقصد من البحث، وهو استجماع جل النتاجات العلمية للدكتور نهاد الموسى، سواءً أكانت كتباً أم بحوثاً ثم النظر والتحديق في مفاصلها، والاستبصار في كل معطياتها، والتعرف إلى مناهجها، ومعطياتها العلمية والمعرفية، ونسقها في سلاسل، ولزها في قرن يجمع كل زمرة، لتكوين أطر كلية معرفية أو منهجية، وفي المنتهى إجراء تقييم شامل لكل هذه الجهود الخيرة، وتثمين قيمتها بما تستحق، فجاء البحث في المطالب الآتية:

١. التعريف بالعالم الدكتور نهاد الموسى باقتضاب.
٢. مؤلفات الدكتور نهاد الموسى:
أ. الكتب.
ب. البحوث العلمية.
٣. منهجه، وطرائق بحثه.
٤. خلاصة البحث، وتقويم الجهود التي استفرغها في خدمة العربية.

التعريف بالأستاذ الدكتور نهاد الموسى

لعل من أشق الأمور على المرء أن يعرف بمعاصر، توقي الانحياز والاتهام بالنفاق، والتواطؤ، أو التقارض، أما النخب والرموز فالأمر معهم أعسر، فأنا أدري أن المعاصرة حجاب، ونحن بشر يتلبسنا النفاق والممالأة تسري في جبلتنا، وصار من سيماء العصر التسلق والتنافق، والتنافخ الاجوف والتنفج، وأعرف أن أصابع الاتهام ستشير إلي، وتنبزني بما أكره، فهذه صيرورة اعتيادية، ولكن صدق رغبتي في الكشف عن الحقيقة، والنقب عن الحق للرد على مزاعم متهمي هذه الأمة بأنها صارت بكيئة لا تنجب، شكلت كلها قناعتي بوجوب المضي، لاستجلاء وجوه الحق.

فالأستاذ الدكتور نهاد الموسى أستاذ العربية في الجامعة الأردنية، بل في جل جامعاتنا العربية، تدريساً وبحثاً وإشرافاً على الباحثين، ولا أحد يتشاغل بدرس العربية إلا مت إليه بسبب. والنصفة تحله في أسمى موقع، وأسنى موقف في المشهد الثقافي العربي المعاصر، وأرفع منزلة يتبوؤها عالم محدث، إذ نسل جملة من البحوث والمؤلفات، بل حزماً ورزماً من البحوث القيمة، والمشاريع اللغوية الشاخصة على جهوده ورسالته التي ظل يؤذن بها، ويصدع، حيناً من الدهر، وما زال بحيويته الدافقة، ونظراته الثاقبة ينفح الأمة بسيول من المشاريع الثقافية. فهو يمتلك مشروعاً ثقافياً، حق لنا أن نباهي به، ويجب أن نجليه ونعيد طرحه للمجتمع، لنحرض الناس ونستفزهم إلى واقع لغتهم.

وتلفيه مستمسكاً بأصول الفصحى في أحاديثه العلمية الممتعة. ويتضور ألماً ممضاً حين تصدم اذنه عبارة لاحنة أو منحرفة، ويتمعر وجهه ويضيق عطنه، ويتجهم ويتعبس للذين يؤثرون العامية على الفصحى، ويؤنسك حين يعلمك من كثب أنه يتضوع فرحاً، ويهش للقابضين على جمر الفصحى، وأنه يرتكس إلى خيبة أمل حين يرى تهافت النخب، والمنابر الإعلامية والتربوية على اللغة المحكية، وتعبسهم وتصعير خدودهم للفصحى، وتأخذه الدهشة والغيرة حين يطرق أذنيه لحن من متخصص

في العربية، أو من مثقف، أو من متعلم يجل العرب والعربية.

كان قدوة ونموذجاً في حياته التي يصطنعها.

كانت الفصحى تنثال على لسانه انثيال النبع الرقراق، بشفافية وعفوية، من غير ما تقعر أو تكلف وقتي، ازعم أنه أتقن العربية، بكل دقائقها وتفاصيلها، كأنما نثرت الأساليب العربية بين يديه، يتنخب منها ما يروقه، لا يلحن، ولا يرق أسلوبه أو يتهافت ولو ظل يتكلم حولاً كريتاً. عرف مفاصل العربية وقوانينها، وأساليبها، ومناهجها، ودهاليز علمائنا معرفة تنم على دقة وعي وعمق نظر وصدق تمثل. تهش له العين إما أبصرته، يرتدي أبداً لبوس العلماء، وأردية الجلال والجمال والهيبة الشاخصة في العلماء. يغرف من بحر العربية الرقراق بتؤدة، ويجدل من سبائكها ضفائر لغوية آسرة، لا يني يتدفق من غير تكلف أو مغالطة أو تنمط أو تكرر. له قدرة عجيبة في تشقيق المعاني، ومتابعة الأفكار حتى النهاية. منفتح على الحداثة والمستجدات العلمية، وتسمو نفسه أبداً أن يحل العربية في أعلى عليين، لذا تراه يفكر بإجراء مقاربة بين مناهج النظر العربي، ونظيراتها الغربية المحدثة، ومحاولة رجع النظر في توصيف مفردات العربية كيما يسهل على الحاسوب؛ لإجراء حوسبتها وفق أحدث المعطيات العلمية.

مشروعاته اللغوية:

لا مشاحة في أن المرء مخبوء تحت لسانه، ومتى تكلم عرف، ويراعته ترجمان لسانه، يشف ويصف أفكاره ورؤاه، لذا صح أن تكون مؤلفات المرء كاشفة رؤاه، ومشخصة فكره، وتوجهاته. ولعل مؤلفات الدكتور نهاد الموسى أصدق ترجمان عن اللون الذي يمتاز به، ويلتصق برؤاه التصاقاً قوياً، وهو إقامة مشروع نهضوي تنموي لغوي، يعنى بنشر اللغة الفصحى، وتأصلها لدى الناس، بترويجها وإساغتها، وإسلاكها على أطباق مغرية مقنعة.

لقد مرد الدكتور نهاد على أن يتقطر منه في كل حول مشروع مهم، جاذب ولافت وشائق، ولعل من أظهرها المشروع النهضوي اللغوي القومي الذي وسمه: "قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث" الذي أذن به جهاراً وصدع عام ١٩٨٧م. " وقد نشأ هذا البحث في نفس صاحبه، كالرؤيا حتى ظننت للخاطر الأول أنّ تَحَوُّلَ الناس من العامية إلى الفصحى في لغة الخطاب اليوم غاية قريبة تلقائية التحقيق. ولم أمض لهذا الخاطر غير بعيد حتى وجدت أمواجاً من التسآل تنداح دون تلك الغاية " (٥).

والأسئلة المثبطة التي انثالت عليه منطقية مشروعة: هل يمكننا أن نتحكم في اختيار الناس المستوى اللغوي المحدد؟ وهل العربية الفصحى كانت اللسان الموحد الذي يجتمع عليه الناس قديماً في حياتهم اليومية؟ ثم كيف تبدأ أو من اين تبدأ؟ وتكلف المؤلف عناء الإجابة عن هذه الأسئلة الجدلية وغيرها بمنهجية متناهية في الدقة.

ونسأل هل الأمة المتشظية اليوم في كل شؤون حياتها، والمتشرذمة ينهش الأعداء جسدها، ويحاول تمزيقها، في ظل عولمة مضللة ظالمة، هل هي بحاجة إلى توحد لغوي يشكل لها قلعة تتخندق فيها متحصنة ضد أعدائها الكثر؟ إخال الجواب نعم. أما السؤال الذي يتغولنا أبداً: هل ذلك ممكن؟ هل وقع شيء في التاريخ نتهدى أو نقبس منه؟ أو نتقيله؟ هل ثمة مشكاة من إرثنا تنير لنا الدرب ونستانس بها؟ أحسب أن التحول إلى الفصحى في كل مناشط الحياة ليست البتة من لزوم ما لا يلزم،

بل لازمة لازبة. ونسأل: ما منطلقات هذا المشروع؟ هل هو ردة فعل عاقلة متبصرة لما لحق الأمة من إجحاف في لغتها؟ أو بأثارة من دعوات هدامة متقادمة، ما الظواهر المتقادمة في إرثنا، في هذه المسألة نتقوى بها وتحفزنا؟ ثم ما المسوغات؟

أسئلة تطل على منافذ البحث بمشروعية واستحقاق.

منطلقات المشروع ومسوغاته:

تأصيل المسألة:

لا يخفى أن الأمة برمتها كانت مستهدفة منذ مطلع القرن العشرين، لغتها، وتراثها، وحضارتها، واقتصادها، وكل فعاليات الحياة بقصد تغولها والانقضاض عليها، وبدأت هذه الأطروحة بمنهجية، استهلت بالتشكيك بكل الثوابت والأصول، فأطلت علينا دعوات تسعى إلى تقويض الأمة بغسيل دماغ أبنائها، وسلخهم عن هويتهم تمهيداً لاستعمارها، ومص خيراتها، فنشأت دعوات هدامة شكا منها جملة من المصلحين الحراص على الأمة، والغير على مستقبلها ولعل صيحة حافظ إبراهيم بلسان العربية تشكل رجيعاً إذ قال:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي

وناديت قومي فاحتسبت حياتي

رموني بعقم في الشباب وليتني

عقمت فلم أجزع لقول عداتي

وظلت الدعوات تترى، بتقصد معطيات الأمة، تمهيداً لاستعمارها، ولإشعارها بالدونية والصغار، وحينما يستحضر المرء تلكم الدعوات يتشظى ألماً، ويتميز غيظاً، ويتضور حسرة. وإخال ان صنيع الدكتور نهاد الموسى جاء رداً إيجابياً على تلكم الدعوات الهدامة، والأفكار المشبوهة المستخذية، والأقلام المرضوضة الكسيحة التي آزرت المستعمرين وأعوانهم وسهلت لهم سبيل النيل والتشكيك (٦).

ومسوغ آخر نابع من البعد القومي، فالعربية هويتنا القومية وموئل ثقافتنا، وحاضنة إرثنا، فهي وشم على كل زند عربي نقي، وأنشودة على كل لسان، وخفقة في كل جنان، والأداة إلى العبارة والبيان، وهي العباءة التي نسجناها من نجيعنا، والخيمة الوارفة التي تخفي مشاعرنا وتدفئها، فإذا ما انداحت تساقطت أوراق التوت، وانكشفت السوءة، وانهدم الحصن الذي يلوذ به الناس كلما طغى المستبدون والمتجبرون " أو كما قال الدكتور خالد الكركي (٧).

ويتراءى للمرء أن مسألة التوحد اللغوي أخذت تنكمش، مثلما تحجمت أو تغيبت الدعوات الجهيرة إلى الوحدة العربية، التي ظلت قارة في ذهن أبناء العروبة من لدن ولادتنا حتى شرع دعاة العولمة والإقليمية والقطرية، يهدمون جل ثوابتنا.

ومن منظور آخر فإن في المشروع رسيساً من بعد اقتصادي شاخص، إذ إن الانتقال من اللغة المحكية إلى الفصحى ينطوي على كلف اقتصادية وإهدار للوقت والمال، فحين تصير الفصحى واقعة في إطار الكفاية اللغوية المكتسبة منذ الولادة، توفر جهوداً مالية ضخمة، فاللغة بالنسبة للاقتصاد الحديث، مثل

النقود، فهي أداة التنمية الثقافية، وصيانتها إلى الأجيال القادمة (٨).

ولعل في ازدواج اللغة تأثيراً في ازدواج الشخصية وانفصامها، ففي البيت لغة حياة محكية، وفي المدرسة لغة أخرى، وفي البحث والجامعة لغة أخرى، فينشأ العربي مزدوج الشخصية، شخصية طبيعية يتلبس بها عندما يتكلم لغته الخاصة، وشخصية مصطنعة متكلفة يتلبس بها عندما يقف مواقف رسمية، حيث يتحتم عليه أن يتكلم كلاماً غريباً عن حياته اليومية، وفي ذلكم تأثير في الأخلاق أيضاً (٩).

فما أسهل أن نتحد على اللغة الفصحى، من قبل أنها متوحدة، إذا سمت نفوسنا إلى ذلك، وسَخَّيْنا بأنفسنا عن العامية، واقصرنا في التوفر عليها، وما أشق أن نتوحد على اللغة المحكية، من قبل أنه ليس لدينا لغة محكية واحدة، بل لغات، ولهجات، منها مصرية، أو سورية، أو مغربية، أو عراقية، يختلف بعضها عن بعض، وتختلف عن الأصل الأول الذي انشعبت عنه، في كثير من مظاهر الصوت والقواعد والدلالة والمفردات، وسلكت كل لهجة منها في تطورها منهجاً يختلف عن منهج غيرها، تحت تأثير ظروفها الخاصة، وأخذت مسافة الخلف تتسع بين هذه اللهجات حتى أصبح بعضها غريباً عن بعض... غير انه قد خفف من أثر هذا الانقسام اللغوي بقاء العربية الأولى بين هذه الشعوب لغة أدب وكتابة ودين (١٠).

والفصحى تشبه أن تكون متوحدة موحدة، تشيع بين أبنائها صلات القرابة، وتقوي لحمة النسب، فلا تتوزعها لغات شتى، ولا تتنازعها أهواء متباينة، فالتوحد اللغوي، والتحول إلى اللغة الفصحى هو سبيلها إلى وحدة اكبر وأشمل، وهي الوحدة العربية، وهذه تقتضي إرادة علمية ثقافية، وتلك تنتظر إرادة سياسية.

فالوظيفة القومية على جانب كبير من الأهمية، فهي توحد المشاعر، وتقوي نسغ الحياة والانتماء بين الأبناء.

والتنمية اللغوية طريق الوحدة اللغوية، والخطوة الأولى، فإذا تجذر أبناء العربية في منابتها واصولها، بقناعة وفهم حصيف عبر قنوات تعليمهم وتربيتهم، من البيت، والشارع، والمدرسة، والجامعة، والمجتمع، عبر هذه المنابر التي تقرع أسماعهم كل يوم، يومها تصير سبيل الفصحى سابلة سالكة بأريحية، تصير الفصحى جزءاً من سلوكنا اليومي، الذي لا نفرط به، مثلما نلظ بقناعاتنا وثوابتنا، التي لا نحيد عنها (١١).

مؤنسات نتهدى بها:

هل كان هذا المشروع اللغوي الضخم بدعاً، أم له سوابق نتهدى بها، ونستأنس؟ ثمة خطوات متقادمة كانت مشكاة ومنارة نتهدى بها، وصوى نتقوى بها، تدفعنا وتستحثنا، وتقوي عزائمنا. وما من فعالية في الحياة إلا محتاجة إلى تخطيط مدروس، تتضافر فيه غير جهة، فالمشروع اللغوي، بحاجة أبداً إلى إرادة سياسية حاضنة تخطط وتنفذ، ولا بد لها من آليات ناظمة وموجهة، فمتى اتحد الثقافي مع السياسي، لا بد أن يفرز خيراً للمجتمع، ولقد ظل المشروع الثقافي مصوناً بالقرار السياسي، وتلكم مثل شاخصة من التاريخ، مسوغات ومؤنسات تعد مشكاة نتهدى بها:

١. " ولم تزل العرب في جاهليتها وصدر إسلامها تبرع في نطقها بالسجية، وتتكلم على السليقة، حتى فتحت المدائن، ومصرت الأمصار، ودونت الدواوين فاختلط العربي بالنبطي، والتقى

الحجازي بالفارسي، ودخل الدين أخلاط من الأمم فوقع الخلل في الكلام، وبدأ اللحن في ألسنة العوام " (١٢).

وإلى هذا أشار ابن خلدون في مقدمته: "فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمستعربين، والسمع أبو الملكات اللسانية، ففسدت بما ألقى إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع" (١٣).

فهذا وغيره يشي بأن العرب طراً كانت لهم لغة موحدة وهي العربية الفصحى ومن خرج على ذلك فقد استنكر واستهجن سلوكه، فقد روي أن رجلاً سمعه الرسول يلحن في كلامه، فاستنكر ذلك منه فقال: "أرشدوا أخاكم فقد ضل" (١٤). وهذا مؤشر على مبلغ استمساك الناس بالفصحى وإقامتهم عليها، ومن خرج على سمتها، وجافى سننها عد ضالاً، أليس في ذلك مقنع بإمكانية تحول الناس إلى الفصحى على نحو ما كانوا عليه قبلاً. وظل الناس على قرو واحد في الاستنامة لمنهج الفصحى وأساليبها.

٢. كانت إقامة القواعد النحوية الناظمة لأصول العربية، بقرار سياسي من خليفة أو أمير (١٥).

٣. جمع القرآن والحديث عمل ثقافي بقرار سياسي.

٤. استهجان اللحن، والتفحيش على اللاحنين، وعمل مصنفات التصحيح اللغوي تعد روافع ترميمية بقرارات مجتمعية ثقافية.

٥. والتحول عن العربية إلى اللاتينية لدى تركيا، في العصر الحديث، كان بقرار سياسي ضاغط مجحف، حول الناس عن العربية.

كل هذه المؤشرات دوافع إيجابية تكشف عن قوة الإرادة السياسية التي توجه الثقافة والمجتمع في تغول اللغة أو تخولها، في نحلها أو خلخلتها، في إغنائها أو إفنائها، وفي تنقيتها أو مذقها بالشوائب القاتلة، وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وليست جهود الجزائر الشقيقة بعازبة عن الأنظار، في دفع الناس وتحويلهم إلى العربية من الفرنسية، في العصر الحديث، مما يجسد العلاقة الوطيدة بين اللغة والهوية.

إن الإرادة تصنع المعجزات، وإيجاد الإرادة الواحدة يقتضي إيجاد وعي شامل بالخطر المحدق بالأمة في شرذمتها، ومحاولات تفكيك مقوماتها، وتركها لا لحماً ولا وضماً، حملاً لنا على سمت أوروبا حين نسيت لغتها اللاتينية، وصارت حبيسة الكتب ودور العبادة.

فما أحوج الأمة إلى تخطيط وبرامج عملية لصون العربية، وحمل الناس على مقارفة الفصحى، ومقاربة أساليبها، بالتدرج الحصيف، والقرار الملزم، على نحو ما تفعل الدولة الآن بالتزام السائقين بحزام الأمان في المركبات، ولسنا بحاجة إلى خطب تدبج، وأشعار تحبر، تثير الزوابع ثم تخمد، فلنرفع العقيرة منبهين إلى أن العربية تذبح اليوم في معاقلها، وعلى أيدي أبنائها، وتدمر في عقر دارها، وتغزى في موئلها، وما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا، وصار موقفنا تلقي الضربات، حسب، كحشية قش يتدرب عليها اللاعبون.

فهل الأمس الصارم الندي بالحياة، يمكن استعادته ليكون الحاضر المعيش؟ هل يمكن، قياساً على البدء، أن يكون الماضي ختام الحاضر بالعودة إلى الجذور مرة أخرى، وبقرار سياسي، وإرادة اجتماعية

وحاجة ثقافية ملحة؟!.

لا بديل عن مشروع لغوي نهضوي، تستجمع فيه كل الجهود، ولا بد لهذا المشروع أن يدعمه القرار السياسي، "وتشهد الوثائق التاريخية لبعض الخلفاء العرب في دمشق وبغداد أنهم شجعوا الأدب والأدباء، واهتموا ببناء دار الحكمة، وتشجيع الترجمة، والتفاعل الحضاري، وبناء المدارس، والحفاظ على التراث العربي، فالسياسة تصنع الثقافة، وتوجهها" (١٦).

"كل لغة أدبية فصيحة كانت يوماً لهجة، وكل لهجة تصبح لغة رسمية بفضل سلطة عليها تفرضها على المجتمع... قد تكون عاملاً عسكرياً – سياسياً، أو عاملاً دينياً، أو عاملاً أدبياً، أو عاملاً اجتماعياً طبقياً، وليس من الضروري أن تكون السلطة العليا عاملاً فردياً، بل قد يتداخل عاملان أو ثلاثة في تكوين هذه السلطة (١٧).

فعلينا أن نضافر أكثر من عامل يسهم في إقامة هذا المشروع النهضوي الملح، وأن نسترفد كل الوسائل الإعلامية، والثقافية، والتربوية، والدينية، والسياسية، والاجتماعية. وأن نستفرغ ونستقوي بالإرادة السياسية لتكون مثابة وموئلاً.

ومعلوم أن العربية الفصحى كانت أمشاجاً من لهجات، تتوزع القبائل، ثم طرأ طارئ توحدت فيه هذه القبائل في لهجة واحدة هي العربية الفصحى، التي بها نزل القرآن الكريم، الذي حفظ العربية على تكاثر العوادي وتكالب النوائب. فهل نوحد الأمة قبل أن نوحد لغتها، أم نقيم الأمة على وجه لغوي متوحد يفضي إلى وحدة سياسية باتت في ضمير الغيب بعيدة المنال؟! إن الوحدة اللغوية هي المقدمة السليمة للوحدة السياسية. وهل اللغة تستحدث بالمشيئة.

بدأ المؤلف مشروعه بمدخل توضيحي؛ ليرفع اللبس الذي قد يوقع فيه عموم نص العنوان، والمذهب المقصود وهو: أن نتحول إلى الفصحى من العامية – في لغة المحادثة – وإذن ننقل استعمالاً لغوياً إلى موقع كان يحتله غيره، فنستبدل بالاستعمالات العامية استعمالات فصيحة في مواقف التخاطب الخاصة والعامة في البيت والشارع، وإذن تحل الفصحى محل العامية، وتصبح العربية مستوى لغوياً واحداً وتنتفي الازدواجية (١٨).

ويتوفر المؤلف على تاريخ الدعوة إلى الفصحى، ويشير إلى أنها متقادمة في حومة الجدل اللغوي، وظلت تنتصب، وحاول الغير على اللغة في كل قرن أن يحيوا الفصحى ويبقوا عليها في الخطاب كما حفظت في الكتاب. ويشير إلى تاريخ هذه الدعوة منذ (جمعية الإفصاح) التي أسسها عز الدين التنوخي في مواجهة التتريك ثم ينتقل إلى وصف بناء العربية الائتلافي، فقد أقيمت العربية على ائتلاف عريض، إذ انتظمت في وصفها التاريخي العتيد ملامح متباينة في صورتها، ومسالك متغيرة في تطورها، ومناهج مختلفة في تصورها، فقد انتظمت في بنائها لهجات قبائل مختلفة، إذ أخذ علماء العربية في استقرائها ووصفها عن قيس وتميم وأسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين (١٩). وترتب على هذا تداخل اللغات واختلافها وهي حجة، فاللهجات على تنوعها كانت تصب في الفصحى اللغة المشتركة.

أما الازدواجية المزعومة فيقول المؤلف:

"ولكننا نذهب إلى أن الفرق بين مستوى اللغة المشتركة ومستوى اللهجة الخاصة لم يبلغ يومذاك أن يمثل وضعاً إزدواجياً... بل لعل التحقيق يفضي إلى أن بعض هذه القبائل فيما أثر عنها من سمات

لهجية لم تكن تبتعد عن الائتلاف الفصيح ابتعاداً أصولياً" (٢٠).

وينتقل المؤلف إلى صلب المسألة في التحول إلى الفصحى بدرس اللهجات المحكية السائدة درساً علمياً، ثم البدء بالتعليم بالفصحى، درساً وخطاباً فالمعلم والإدارة، والمناهج، والطلبة، والحديث العلمي التعليمي، والخطاب الاعتيادي ينبغي أن يجري كله بالفصحى، ويروض الناس تدريجياً (٢١). ولعل هذا التدبير يؤسس في المدرسة جواً طبيعياً للفصحى لا يلبث أن يؤثر بحجمه البشري في السلوك اللغوي للمجتمع الكبير، ثم لا تلبث الفصحى أن تصبح نموذجاً مألوفاً في التخاطب اليومي، وتلك هي المقدمة الأولى في سبيل التحول (٢٢).

على أننا نستدرك فنقول إن المقدمة الأولى تنبع من البيت قبل أن يختلف التلميذ إلى المدرسة، ففي حاله تلك يكون قد تشرب جملة من القيم اللغوية في البيت يعز تغييرها، فنرى أن المفتاح يبدأ من البيت بتعلم المستوى الفصيح الذي يسكبه الوالدان في أذني الطفل، بطريقة ابتدائية عمومية، بإسلاك الفصحى إلى لسانه.

وقد ألمح إلى آلية تنمية الفصحى لدى الصغار الدكتور أحمد المعتوق تحت باب "الاتصال الاجتماعي" فقال: يبدأ الإنسان الاحتكاك والاختلاط بغيره من أبناء جنسه منذ المراحل الأولى... يبدأ الاتصال الوثيق بأبويه وأفراد اسرته، ثم بأهل محيطه وأفراد مجتمعه بمختلف فئاتهم ومستوياتهم وطبقاتهم الاجتماعية والثقافية وعلى اختلاف أعمارهم وأجناسهم (٢٣).

وكان أشار إلى وظيفة التخالط والتحالك الاجتماعي، قبلاً الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ): "والإنسان بالتعلم والتكلف، وبطول الاختلاف إلى العلماء، ومدارسة كتب الحكماء يجود لفظه ويحسن أدبه" (٢٤).

وهذا ما ذكره ابن جني (ت ٣٩٢هـ) فقال في معرض تنقل اللغة بالملاحظة: ذلك لأن العرب وإن كانوا كثيراً منتشرين، وخلقاً عظيماً في أرض الله غير متحجرين ولا متضاغطين، فإنهم بتجاورهم وتلاقيهم وتزاورهم يجرون مجرى الجماعة في دار واحدة. فبعضهم يلاحظ صاحبه ويراعي أمر لغته، كما يراعي ذلك من مهم أمره" (٢٥).

وهذا ما أكده بأخرة ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ): "فيسمع استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولاً، ثم يسمع التراكيب فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعه لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة (٢٦).

وهكذا تصير الخطوة الأولى في نشر الفصحى لدى الأبناء منذ أن يدرجوا في الطفولة والصبا، يتلقونها نقية صافية من لدن الآباء الذين يعيشون بين ظهرانيهم، بشرط أن يكون الآباء قد أتقنوا هذه الفصحى وتمرسوا بها وجرت على ألسنتهم. وقديماً قالوا: اربط الحمار مع الحصان إن لم يتعلم من جريه تعلم من طبعه.

قبل أن يدلف الطفل إلى المدرسة ينبغي أن يكون حقن بقدر من المهارات اللغوية الفصحى، فاللغة تؤخذ اعتياداً كالصبي العربي يسمع أبويه وغيرهما، فهو يأخذ اللغة عنهم على مر الأوقات، وتؤخذ تلقناً من ملقن، وتؤخذ سماعاً من الرواة الثقات" على نحو ما أشار إليه ابن فارس (٢٧).

وقد ذكر الدكتور أحمد المعتوق في بحوثه القيمة آلية اكتساب الطفل مفردات اللغة من الوالدين، ومن محيطه بالتقليد والمحاكاة بشرط أن يكون قد توفر لديه الاستعداد الفطري لاكتسابها، وقد وضح بأسلوب دقيق مراحل الاكتساب من الصوت إلى الكلمة إلى العبارة، إلى أن يصبح المحصول اللغوي

لديه واسعاً (٢٨).

ثم ينتقل الباحث إلى مرحلة تدريجية أخرى من حقول نشر الفصحى وذلك في ميدان الفنون الأدبية، ويسلم المؤلف ابتداءً إلى أن السرد في الرواية والقصة محسوم لصالح الفصحى أما الحوار فمختلف في أمره، وبعضهم آثر جعله بالعامية الحية.

ثم انتقل المؤلف إلى واقع اللغة الفصحى في الإعلام، وهو أخطر المواقع وبين ما فيه من مثالب الازدواجية المقيتة، والإعلام أفضل وسيلة لنشر الفصحى بين الصغار والكبار، ومن يسمع الصغار وهم يتحفظون أغاني الكرتون بالفصحى، أو الدعاية بالفصحى يدرك أن من الميسور أن تتوحد لغتنا على الفصحى بأيسر الطرق وأسهلها. وما نسمعه اليوم من فضائح الفضائيات اللغوية يجعل المرء يرتكس إلى خيبة وأسف، لهذه المنهجية في تقصد العامية.

وقد تشوفت نفسي مرة إلى استماع خطبة افتتاح مهرجان وطني فني ثقافي، وكانت خيبتي حين ألفيت الخطيبة تخطب بالعامية البواح، وإذا حاولت أن تتحدث بجملة فصيحة ارتضخت لكنة أعجمية، أو اقتعدت في لحن مخجل، فكان ذلك ضغثاً على إبالة، فلا هي تجافت عن العامية، ولا اقتعدت في الفصحى الصحيحة وفي ذلكم عجب عجاب.

أما مسألة ارتباط الفصحى بالعقائد الفكرية، فإن المؤلف يقول: إن اللغة في سياق هذه العقائد تنتظم المستويات المختلفة في إطار النظام الواحد دون إقامة فرق صريح بين المستوى المكتوب والمستوى المنطوق، وموقف المذاهب الفكرية من اللغة، على المستوى النظري، يشكل قاعدة مشتركة لائتلاف متفق، فأصحابها جميعاً، إلا ذوي النزعات الإقليمية، ينتصرون للفصحى (٢٩).

وفي الباب الرابع يشير المؤلف إلى الميادين التي محضت للفصحى، وكانت لها الغلبة فيها، وهي تتمركز في ميادين الكتابة ولغة التعليم والتأليف والتحرير الصحفي، والتحرير الإعلامي، وأما في ميادين الأدب فتشيع الإزدواجية، العامية المتصارعة مع الفصحى (٣٠). ويدلف المؤلف إلى صلب المشروع بحذر شديد، بجملة من الأسئلة، فكأنه يسير في حقل الغام، ويخرج من عنق الزجاجة ببرنامج التحول في جدلية الحوار والقرار. فالحوار قبل القرار، لضمان قبول المجتمع لهذا التحول، وإيجاد مناخ اجتماعي منعش ومتقبل، وعقب ذلك يكون القرار بالتدريج، ففي ذلكم تخلص من الازدواجية، والاقتراب الجاد من مسألة الوحدة العربية الشاملة، بالتفاهم الروحي الذي تحققه وحدة اللغة.

ويرى المؤلف أن لا بد من قرار سياسي وتراتيب إدارية تشرف على هذا القرار وترعى تنفيذه، لاختصار الوقت وربح الزمن، متمثلاً بأطروحة كونفوشيوس: لو أتيح لي الحكم لبدأت بإصلاح اللغة. واستأنس بجملة من القرارات السياسية التاريخية في التحول اللغوي (٣١).

ويقترح المؤلف جملة من التدابير الإجرائية، تسعف في تحقيق هذا المشروع منوط بعضها بالدرس اللغوي، وآخر موئله التعليم، وآخر في أدب الطفولة ومحو الأمية، ثم في الحياة العامة، وفي الإدارة والفنون والكتابة ووسائل الإعلام فتحدث ثورة شاملة، ليست طوباوية خيالية بل حلم مدعوم بالعمل والإجراء (٣٢). وكأن المؤلف أوجس خيفة في عدم تقبل مشروعه، أو أنه كان حلماً مثالياً فقال: فإذا كان هذا البحث محاولة في تقديم أطروحة مستقلة في الدعوة إلى التحول فلعله يكون خطوة على طريق التحول (٣٣).

ولقد قدم المؤلف مشروعه تقديماً عقلياً منطقياً علمياً هادئاً، راشداً، من غير تعسف أو افتعال أو خيال حالم خادر بعيد، فلو أن أحداً التفت بأمانة ومسؤولية إلى تبني هذا المشروع العظيم، الذي يشبه تماماً ما نلهج به في التنمية الاقتصادية والسياسية، وفي الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي، في أيامنا هذه، أقول: لو أن أحداً التفت إليه وعمل على تنفيذه كأولوية من أولويات تطورنا وإصلاح واقعنا، وتوحدنا لمواجهة هذه التكتلات والتحديات، التي تتغولنا كل حين، لو فكرنا جدياً في تبني هذا المشروع، وحاولنا تنفيذه لما بقي صرخة في واد، ولا نفخة في رماد.

فإذا ما اطّرحنا الأحلام الخادرة، أو الأوهام الحابطة، وتجافينا اليأس لقلنا إنه مشروع ريادي طليعي قومي يستنهض الهمم ويؤذن بالناس منبهاً على الخطر الداهم، والألم القادم، ولا محيد عن التمحور حول إرثنا والتجذر فيه، والعودة الحميدة إلى الأصول والمنابع، وفي ذلكم خروج من التيه، والاستمساك بالهوية الواقية، كما يقول الدكتور عبد العزيز حمودة (٣٤).

فلا بد من البحث عن مشروع ثقافي لغوي عربي نهضوي، إن الشرخ الذي يعيشه المثقف العربي أو الفصام الذي يتهدده كل يوم، يرجع إلى غياب المشروع الثقافي القومي أو العربي (٣٥).

فإذا ما توافرت لهذا المشروع النهضوي إرادة سياسية حازمة، وإدارة اجتماعية عازمة، وهيئة شعبية راغبة مقتنعة، مع توافر النماذج اللغوية السلطوية القدوة في البيت وفي الشارع وفي المدرسة والجامعة، وكل المواقع والفعاليات المدنية، مع رقابة جادة، وبتطاول الزمن فإن الأمة متضافرة متعاونة ستجد نفسها ملزمة وملتزمة بالتكلم بالفصحى، ومن شذ عوقب ونبذ، وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

نشاطر الدكتور نهاد توجسه وحدبه وقلقه على الفصحى، إذ إنها باتت مهددة مستهدفة، من قبل أنها غريبة بين ظهراني أهلها، وما نسمعه، أو نشاهده من محطات الإذاعة والتلفزة، وما يمارسه المتعلمون في الأوساط العلمية، وما يكيده لنا أعداؤنا، من عدوات استعمارية صيليبية لغوية تمتد جذورها إلى أكثر من قرنين من الزمن، وقد عرفت في أواخر القرن الماضي، وبدايات القرن العشرين أوج صراعها الضاري، بين دعاة العامية ومن ورائهم الاستعمار الأوروبي وبخاصة الفرنسي والإنجليزي، وهم في حالة قوة ووضعية هجوم، وبين حماة العربية المتمسكين بها وبتراثها مهما كان الأمر، وبوسائلهم المحدودة (٣٦).

من يتمثل هذه الأدواء، والأعداء المتكالبة علينا، يحق له أن يستفز كل الوسائل، ويستفز كل الآليات لتسييج هذه اللغة من الأخطار المنهجية الداهمة، علماً بأن جامعات ومدارس أوروبية شرعت تدرس اللغة العامية في معاهد وجامعات، منها مدرسة نابولي بإيطاليا، والقناصل بفينا، ومدرسة باريس للغات الحية، ومدرسة برلين، وجامعة لندن ودرس فيها بحسن نية أساتذة عرب منهم أحمد فارس الشدياق، وألفوا مصنفات بالعامية تنشر في أوساط الناس، والهدف هو محاربة الفصحى، لغة القرآن والإسلام، ودعوة الشعوب إلى ضرورة استعمال عاميتها في جميع مجالات الحياة الشعبية والرسمية والعلمية، وبذلك يصلون إلى تشتيت الأمة العربية إلى شعوب وقبائل يسهل التغلب عليها وضرب الإسلام والعربية ضربة قاضية لن تقوم لها قيامة بعدها " (٣٧).

"إن الدولة التي تعمل على نشر لغتها تعلم أنها لا تقوم بذلك لأهداف ثقافية بحتة، أو لطمس هوية الآخرين، كما يقال، وإنما تقوم بذلك لصالح أسواقها، بالدرجة الأولى" (٣٨).

فاللغة هي من مؤشرات السيادة، ولكن مؤشرات التنمية المعتمدة عالمياً لم تتعود إدراج اللغة ضمن هذه المؤشرات، لأن واضعيها لا تعاني مجتمعاتهم ما تعانيه المجتمعات العربية من تخلف لغوي. وبما أن اللغة هي الحامل الأساسي والأول للتواصل في كل المجالات، وفي أي مجتمع، فإن تخلفها هو بالضرورة مؤشر أساسي وأول على تخلف المجتمع... واللغة العربية لغة الاقتصاد، ولكن التهميش المزمن للغة العربية في العالم العربي، جعل النخب الفكرية والسياسية، وكذلك المواطن العادي يستبطنونه، وكأنه حالة طبيعية لا تسترعي الانتباه، وصار من المفروغ منه أن العربية مغيبة من الشؤون التجارية محلياً وعربياً وعالمياً. والتحول إلى العربية الفصحى في التعامل الاقتصادي وفي المشاريع العربية الاقتصادية الكبرى، يمنع العربية أن تكون عائقاً لهذه المشاريع، وهذا المجال لا يتحمل تسيب اللغة السائد (٣٩).

وثمة أصوات نشطة تعزز ما رمى إليه المشروع اللغوي الرائد في التحول إلى الفصحى " والاهتمام باللغة الفصيحة والعمل على إعلاء شأنها يتساوى والاهتمام بوحدة الأمة والمحافظة على عزتها وكرامتها وتقدمها، في حين أن التهاون في شأن الفصيحة والتقصير في خدمتها وعدم استخدامها في المدارس والجامعات والمؤسسات والدوائر والمحافل هو احتقار للأمة وتعريض لها للتأخر والتقهقر في الفكر والعلم ومواكبة الحضارة المتسارع تقدمها " (٤٠).

وتفاءل بعض الدارسين فقال: أما الآن وقد كثر التعليم في الوطن العربي، وكثر المثقفون فيه، فإن العامية أخذت تسعى نحو الفصحى، فلن يمر قرن لاحق حتى يصبح الفرق بينها وبين الفصحى لا يقع إلا في ألفاظ قليلة لا تزيد على خمسة بالمئة، وفي معظم حركات الإعراب بحيث يغلب على العامية تسكين أواخر الكلمات (٤١). وهذا انتظار لا يحتمله الزمن الدقيق.

ونضم أصواتنا إلى صوت الدكتور نهاد الموسى في مشروعه اللغوي الطليعي الرائد، ونرفده بجمله من الملاحظ:

١. يتم التحول إلى الفصحى بقرار سياسي وإداري معلن، (استراتيجي) لا محيد عنه.
٢. يدعم القرار السياسي بقرارات مالية تحتم العقوبة بالغرامات المالية لكل من يقع في خطأ لغوي مطبوع، وفي أي مستوى، إن الدولة لتزع بالمال ما لا تزع بالأقوال.
٣. يمنع نشر أية مطبوعة إعلانية أو إبداعية شعرية أو نثرية باللغة العامية، لمحاصرة العامية، وتحجيم وجودها، على نحو صنيع الدكتور خالد الكركي إبان عمله في صحيفة الرأي.
٤. يصار إلى ترجمة لغات الحواسيب، والإنترنت وسائر هذه التقنات إلى العربية.
٥. يمنع إذاعة أية أغنية، أو مسرحية، أو مسلسل أو حوار، أو حديث متلفز أو إذاعي باللهجة العامية.
٦. يمنع الحديث، البتة، في أروقة المدارس أو الجامعات باللغة العامية.
٧. يجعل في كل مدرسة أو كلية أو جامعة قناة داخلية متلفزة تبث كلامها وفعاليتها كلها باللغة الفصحى، وليكن ذلك في ناد أو موقع مرموق في كل كلية، يجتمع إليه الطلبة.

والهدف من هذا كله، هو تجفيف منابع العامية وتحجيمها، والتقنية للفصحى لكي تتمدد على حساب العامية، وتحصين الفصحى، كي يصير الناس مضطرين إلى الارتقاء بسويتهم المعرفية لإتقان العربية ليندمجوا في المجتمع اللغوي المتقدم، والموسوم بالثقافة والتمدن.

مشروع لغوي رديف: مقابلة...... ومقاربة مع الآخر:

ثم التفت المؤلف، كيما يعزز مشروعه الرئيس، إلى مشروع لغوي آخر رديف، اتخذه ردءاً له، وهو يترمى غرضاً مقصوداً، يتقصد مقاربة ذهنية منهجية بين مناهج النظر النحوي العربي، ومناهج النظر الغربي وفي وَكْده أن ثمة أصولاً نظرية في العربية رجعاً متقادماً لما يتغياه أهل النظر اللغوي، في زمننا، وذلكم في مصنفه الموشوم: "نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث" كيما يقنع الدارس العربي المعاصر أن الأصول النحوية التي انداحت من أذهان علمائنا يؤازرها منطلق النظر اللغوي الحديث، ولها رجع مسموع، وفيهما رسيس مشهود بين ظهرانينا، فقد توثن الناس علماء الغرب وتعبدوهم، حتى كاد الناس من اختلال التعاطي مع هذه الأنظار، أن يصابوا بشيء من الحول العقلي، فمارسوا الخيانة الثقافية البواح من فرط التوفر على الآخر، والصدوف عن إبداع الأنا، فمنذ حين وهم يرمون النحو العربي بالمعيارية والجمود، فانبثق من رحم الغيب العالم اللغوي سوسير، فأذن بالوصفية، فانفض الناس إليه، متنكرين للفكر النحوي العربي، إلى أن علم الناس أن كل وصفية تنتهي بالضرورة إلى معيارية، فظل القوم واجمين إلى أن طلعت علينا صرعة فكرية أخرى ويتزعمها هذه المرة تشومسكي بأطروحته التوليدية التحويلية، وحسب الناس أنها تصلح ما أثأت يد النحاة، ونقر علماء العربية مؤرقين في مفاصل النظر النحوي العربي المتقادم فألفوا مداخل جمة متشابهة، وأنظاراً متآلفة، وهذا ما ألمح إليه الدكتور نهاد الموسى في مشروعه الثاني. على أن الدكتور عبده الراجحي هجس بإرهاصات تنم على وعيه المبكر لما بين تلكم الأنظار من جسور (٤٢).

على أن المؤلف وقف لدى أعمدة التشابه الشامخة بين الأنظار العربية النحوية، وما يؤيدها من أنظار محدثة. " وتشكل اتجاه البحث في نفس صاحبه تشكله الأول على هيئة إحساس قوي بأن كثيراً من الأنظار التي وجدها في كتب المحدثين من الغربيين، ولابسها في محاضراتهم ومقابساتهم، يوافق عند عناصر كثيرة منه ما قرأ عند النحويين العرب مصرحين به حيناً وصادرين عنه فيما - يقدر الباحث - كثيراً من الأحيان (٤٣).

وهو لا يقطع بالتأثير، أو الأخذ، ولكنه حدس تقريبي لا يرقى إلى منزلة اليقين القاطع في مبدأ الدرس، بيد أنه انتهى إلى يقين ما بعد لأي، من الدرس المنقر والمحقق.

وقد حصر الكاتب مواضع التوارد أو التشابه أو التقارب في المناهج في جملة من الملاحظ منها:

١. في الدراسات البنيوية، التي افترعها سوسير، ومذهبه مشخص مشتهر في مقولات اصطنعها: دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها. وهو منهج شكلي أو صوري، يصنف الصور اللفظية المختلفة على أسس معينة، ثم يصف العلاقات الناشئة بين الكلمات في الجملة وصفاً موضوعياً، ويقوم على التحليل إلى المؤلفات المباشرة، والتوزيع، ثم المعلم وغير المعلم، ثم الخانية (٤٤).

ويعقد المؤلف مناظرة في أصول كل فكرة، مع المنهج النحوي العربي، ليبرز في النهاية ذلك التقارب والتغارف بينهما.

٢. أصول من نظرية التحويل والتفريع.

وجاء هذا المنهج اعتراضاً على الوصفية التي كان وصف اللغة بها وصفاً كاملاً، أمراً بالغ الصعوبة، فانبرى تشومسكي صاحب النظرية التوليدية التحويلية إلى إفراز لنظريته التي يمكن أن تتضام إلى وصفية سوسير في قرن متضافر، وهو يشبه ما استدركه ابن هشام في المغني للتحليل

النحوي، وسماها: جهات يدخل الاعتراض على المعرب من جهتها، وهو ملموح لدى سيبويه، مستشعر به في باب اللفظ للمعاني، يعيب فيه على الاقتصار على ظاهر اللفظ دون المعنى، وهو ما أذن به تشومسكي في نظريته. وظهر التماثل في الرأي، بين قدماء النحاة، وعلماء اللغة المحدثين في أبواب بعينها: منها مفهوم النحو، والسليقة اللغوية، وما ينحصر وما لا ينحصر، والأصول والفروع، والبراني (السطحي) والجواني (العميق) كلها أصول التقاء بين أصحاب النظر السباقين العرب، والمحدثين الغربيين (٤٥).

٣. أصول من الوظيفية ومناهج التوسيع: وهو منهج نظر مستأنف، يشبه أن يكون استدراكاً على منهج التحويل، وتمثله مدرسة براغ التي كان وكد أهلها الاهتمام بسياق الحال، وعلم اللغة الاجتماعي، التي تشبه ما سماه النحاة العرب (السياق) أو (المقام) وهي عناصر مجتلبة من خارج النص من الموقف أو سياق الحال (٤٦).

والغرض الذي يتغياه المؤلف أن يؤصل لأنظارنا النحوية جذوراً ممتدة تضرب في أعماق الفكر، تنم على أصالة وصدق واستقامة، ليشد انتباه أبناء اللغة، إلى صحة المناهج، وسلامة الاستقراء، وقوة الاستنباط، واطّراد النظريات واستقامتها التي توفر عليها نحاتنا وعلماؤنا، بشهادة الأنظار المحدثة، والفضل ما شهد به الأعداء. ومن الخير أن يقال: إن العقول الآدمية تتضافر في صنع الفكر والثقافة، ولا فضل، ولا سبق لجهة، إنما هي جداول وروافد ولا لزوم لتعصب.

٤. وعقيب ذلك يلتفت المؤلف إلى جملة من أمثلة التوارد المفردة، تلقطها وتكلف لها أمثلة مقنعة، من الطرفين العربي والأجنبي، وردت على ذهن المؤلف، منها:

أ. مسألة الشرط والطلب من مثل: اجتهد تنجح، في التماس تفسير لجزم الفعل (تنجح)، على وفق تقدير عنصر محذوف، على نحو ملموح لدى سيبويه والخليل، والمبرد وغيرهم، على أن نحاة عرباً قالوا إن الجواب مجزوم بالجوار، وهو أروح.

ب. ومثلها مسألة: أتيتك غداً. وقد عرض له سيبويه، في الكتاب في أقسام الكلم (٤٧). وهو مزيج صالح في الاحتكام إلى الدلالة والاحتكام إلى النحو.

ج. مسألة النفي والقلة: فمما يقوم مقام النفي في الاستثناء كلمة أقل، في قولنا: أقل رجل يقول ذاك إلا زيد. أي ما أحد فيها إلا زيد. فالتقليل لديهم مضارع للنفي (٤٨). وهي مسألة غاية في لطف النظر وحصافته.

د. مسألة الضمير المستتر في جملة الأمر: في مثل قولهم: قم، فاعله ضمير مستتر تقديره: أنت، وهو ما التفت إليه التحويليون بأخرة، على حين كان قاراً في نفوس النحاة منذ أزمان متقادمة.

٥. بين نحو السنسكريتية ونحو العربية.

يعرض المؤلف مغالاة الغرب في تقدير نحو (بانيني) غلواً كبيراً ويعلنون بأنه ليس في أية لغة نحو يعدل نحوه. ويرون أن (بانيني) هذا وصف اللغة السنسكريتية وصفاً ليس في العالم حتى عصرنا وصف يدانيه (٤٩).

ويحس المرء عقب درس هذا المصنف والآراء التي طرحها استرواحاً عذباً، يلذ المرء، ويجعله يطمئن إلى سلامة مناهج نحونا، لدى القدماء، وإن التلابس والتقارب، والتعارض، والتراسل بينهما، يقيم المرء على قاعدة نفسية صلبة، تبهج النفس، وتجذر الثقة. ولعل هذا الرأي كان يترماه المؤلف، ويتغياه،

عاجلاً أو آجلاً.

ولعل في صنيع المؤلف هذا، وفي تكلفه هذا الجهد، مقنعاً لكل المضللين المهرولين نحو كل ما ينسله الغرب بعجره وبجره، ولعل فيه ادكاراً لكل أنصار الانبهار والاحتقار، ليزدجروا أو يهطعوا إلى صوت الإرث والتماسك الحصيف. وهذا التفطن الأصيل لدى الباحث ينم على أحوذيته الشاخصة، والمعيته المشهودة في كل مواقفه الذابة عن الفصحى وشجونها. ونجأر بأعلى الصوت: لا يضير النحو العربي، إن خالفه الآخر، ولا ينفعه أو يشرفه إن صادف قبولاً أو توافقاً لدى الآخر، إنه فكر له مذاقه، وخصوصيته، وله بيئته وتربته التي انبثق منها. والذي يدقق في موروثنا يلمح معالم درسية مستطابة، هي في أصولها وعمومها، موئل لعدد جم من الطروحات المحدثة. فالوصفية شاخصة لدى سيبويه في الكتاب "وزعموا أن بعض العرب يقول،......" (٥٠).

ومثله كثير في صنيع الفراء في معانيه إذ تلفيه يقول: " سمعت أعرابياً، وحكى الكسائي عن بعض العرب، وغيرها (٥١). وهذه الإشارات أقعد في باب الوصفية ذلكم المنهج الذي أذن به سوسير، وردده صنائعه. وأشار إلى هذا الدكتور عبده الراجحي بآخرة (٥٢).

والتوليدية التحويلية بواح في فكر سيبويه حين تكلم عن النواسخ والأصالة والفرعية، والتقديم والتأخير والحذف، التي وسمها ابن جني بشجاعة العربية (٥٣) ووشمها الثعالبي بأسرار العربية (٥٤). وذكر انه منهج متلثب في العربية، ومن أجلى سماتها. وأجرى المحدثون مقاربات كيما تجسر بين مناهجها ومناهجهم، استلهموها من عبد القاهر الجرجاني في نظرية "النظم" ومؤداها، على وفق رؤاه: " أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو " (٥٥) فنسلت منهم أنظار مستلهمة من هذه الرؤية تقترب كثيراً من النظرية التوليدية التحويلية (٥٦).

مشروع لغوي رديف: مشروع التصحيح: وقائي...... علاجي:

اللغة العربية وأبناؤها:

وهو مشروع فيه دعوة إلى التصحيح، بالتصدي المباشر لأخطاء الناس وانحرافهم عن جادة صواب الفصحى، وهم يتقارفونها.

وهال الدكتور نهاد الموسى فشو اللحن وتراكمه بين كل الأوساط فهو يشكل هماً لغوياً عريضاً يشغل الآباء والأمهات، ويجأر المعلمون بالشكوى منه، وكذلك المشتغلون بالعربية في الجامعات وأساتذة العربية يعلنون أبداً ضيقهم بما يكتبه أهل الصحافة، وطلبة الجامعات، وما يكتنفه من أخطاء النحو والصرف والإملاء (٥٧).

فكان لا بد من التصدي لهذه السقطات رصداً، وتأصيلاً، وتعليلاً وعلاجاً.

واللحن قد سمع من عصور متقادمة، " وكان اللحن خفيفاً منذ أيام الرسول عليه السلام، على ما يظهر، فقد لحن رجل بحضرته فقال: أرشدوا أخاكم فقد ضل" (٥٨).

وفشا في البادية وفي العراق (٥٩). وتمكن فينا وفشا حتى صارت تؤلف فيه معاجم ترصد تلكم الأخطاء وتصححها، كالتي نراها في الألفاظ الصحاح. وانبرى الصبر الغيارى على العربية، لهذه الملاحن بالنعي والرصد والتصحيح، فنسلت جملة من تلك المصنفات منذ الكسائي ما تلحن فيه العامة، أو لحن الخاصة الذين هم لحقتهم تلكم المثالب والمعايب.

ولم يكتف الدكتور نهاد بالتنبيه الفوقي المنقطع: هذا خطأ وصوابه كذا، أو: قل كذا، ولا تقل كذا، بل

أسمت نفسه إلى استخراج نظرية الخطأ، والتفسير الملائم لها، ليهيئ لهم وعياً نظرياً مقنعاً على حالهم مع اللغة، فبذلك نستطيع أن نأخذ بأيديهم إلى تدارك أخطائهم في اللغة على بينة، من غير تعجل في الحكم بالخطأ على بعض ما يرد علينا، من الخاطر الأول (٦٠).

وبدأ المؤلف بتتبع جذور بناء العربية الائتلافي، الذي قد يسعف في التسمح ببعض الأخطاء حين نلتمس لها وجهاً إن في اللغة المشتركة، وإن في بعض اللهجات المستنبتة على هامش الفصحى، وأعطى أمثلة لها في حركة كلمة أمس أو حذام، أو هيهات، او ما هذا بشراً أو بشر، ثم عرض أمثلة للتعدد في أبواب الصرف، في ثنائية الضبط أو ثلاثيته. واتبع ذلك بوجوه من الاختلاف في المستوى المعجمي. وبين المؤلف اختلاف القدماء، وتناقض المحدثين في القول الواحد.

وعقيب هذه المقدمات النظرية التي تعكس مرآوياً عمق المسألة وتعقدها، يدلف المؤلف إلى تشخيص أخطاء الطلبة، راصداً وملخصاً، ومصنفاً ومصححاً. فثمة أخطاء لها وجود في أعاريب وتوجيهات ووجوه لهجية قديمة: وهذه الأخطاء لها وجه في الصواب التاريخي، وصنفها أنها تنتسب إلى وجوه فرعية، لم يجر بها الاستعمال اللغوي الممتد، ومنها إلزام المثنى الألف وإجراء نعت المجرور من المثنى بالألف، وغيرها (٦١).

وثمة أخطاء مردها إلى تقدير شكلي، ومنه الخطأ في إعراب اسم إن حين يتأخر كما في قول بعضهم: لا شك أن هناك فرق كبير، وغيرها (٦٢).

وأخطاء يفسرها جنس الكاتب كقول إحداهن: أنا مصمم، وأنا آسف. وتطالعنا أخطاء يفسرها العزوف عن تقصير أبنية الكلم واختزالها، ومنها عدم حذف حرف العلة من آخر الفعل المضارع المعتل الآخر مجزوماً: فالباحث لم يبدي ولم يكتفي برأيه، وعدم حذف ياء المنقوص الواقع جراً بغير أل: هذا اختيار واعي (٦٣).

وأخطاء يفسرها الازدواج بين الفصحى والعامية، الذي يظهر إشكالية عسرة ومنها تسكين أواخر الكلم في غير الوقف: أسلوبه جاء سهل قوي صحيح فصيح، وأخطاء مردها إلى تحصيل العربية على طريق التعلم، ومنها التصريح بلفظ الاستثناء بدل إلا، فثمة برزخ قائم بين المعرفة على مستوى النظر والمعرفة بها على مستوى الأداء. وأخطاء تنجم عن المبالغة في التصحيح، وأخطاء هي من أثر التصحيف، وأخطاء هي من أثر الترجمة، وأخطاء في الرسم، بالكتابة بالمنطوق لا بالمألوف. وهذه التقاسيم ملموحة في جل الدراسات في هذا المضمار (٦٤).

ويختم المؤلف بحثه المنهجي بقرار فيصل في تحديد الخطأ فثمة خطأ صراح، ينعقد عليه الإجماع بالانطباع المتحصل لدى جمهور المتعلمين من أبناء العربية، وثمة خطأ يرتد إلى أسلوب لهجي له وجه مسوغ. فلا بد في النهاية من تحديد المستوى اللغوي المميز الذي نتهدى به، ونحتكم إليه، بحدود مرسومة معينة قبل أن نحكم بالخطأ، ينبغي التوحد على معيار معلوم، وما وقع خارجه فهو خطأ، دون التسرع أو التهافت، أو التعسف (٦٥).

وهذا مرام يمكن إدراكه بوضع ضوابط وأصول متعارفة، لإقامة الناس على وجه من اللغة متوحد، ومستوى لغوي مطرود، وهو اللغة الفصحى الموحدة.

فهذا بحث منهجي موضوعي مسعف في التصحيح اللغوي، والإهابة بالناس إلى تعلم قواعد علاقتهم، ليهطعوا راشدين لنواميسها، وليطرحوا الأجوبة الفاسدة، أو المرجوحة، أو الشاذة، أو

اللهجية، أو النادرة، والأهم هو مجانبة العامية إطلاقاً.

المشروع اللغوي الداعم لطرائق تعليم اللغة العربية: تعلم وتعليم:

إذا كان المشروع السابق منصباً على تقويم ألسنة الناشئة الشداة بله المتعلمين الكبار والباحثين، فإن هذا المشروع يعالج مسألة آلية تعليم العربية بطرائق شائعة، والمشروع هو: "الأساليب مناهج ونماذج".

والشكوى من العربية، ولا سيما النحو، شنشنة نعرفها من قديم، ظلت تند من أهلها، من أزمنة وتعللوا بها لنبو إفهامهم عنه. وعلل الدارسون لهذه الشكاوى فزعموا أن بعضها آت من عيوب النحو نفسه، وبعضها مستظهر من الطرائق التي يعرض فيها النحو للطالبين. أما الشكاوى القديمة والمحدثة وعللها فمبسوطة في كثير من قراءات المحدثين والقدماء (٦٦).

أما مشروع الدكتور نهاد الموسى فقد جاء منصباً على الشق الثاني، وهو التعثر في آلية تعليم العربية. وقد جاء مشروعه إجابة عن أسئلة المعلم المبتدئ والمتعلم المتدرب، والمعلم المجرب، وكثير من المهتمين والمتشاغلين بتعلم العربية، فيمثل هذا الكتاب في منتهى أطروحته إسهاماً في الإجابة عن تساؤل هذه الشرائح المستهدفة بهذا المشروع. وأصل مشروعه على الربط المنظم بين أطر النحو الثلاثة: النظم والإعراب، والصرف ورصد علاقة النحو بسائر مستويات النظام اللغوي، وربط النحو بالسياق في ملحظ وظيفي، وربط القاعدة بالنص والاستعمال، وبحياة اللغة والمتعلم. وآثر المؤلف استثمار الطريقة الكلية في استشراف النص، ثم معالجته معالجة كلية شاملة، بعد أن تمتلئ نفوسهم بمعطياته، ومقاصده. فالفهم والتذوق، والتماهي مع النص، ثم المعالجة اللغوية.

جمع هذا المصنف بين المناهج والنماذج، أي بين النظر والمثال التطبيقي، واللساني والوظيفي، فكان مناهج نظرية مشفوعة بالأمثلة الوظيفية الأدائية، في تعلم المهارات اللغوية والتدريبات النحوية (٦٧).

وفي أعقاب المقدمات المجلية، ينتقل المؤلف إلى طرائق التعليم بالوحدة مشفوعة بنماذج تطبيقية، شرح وتوضيح وتعليل ومن ثم الرفد بالنماذج (٦٨).

ويطالعنا المؤلف بموضوع جليل وهو: تقييم الكفاية اللغوية في العربية، بقصد تشخيص منظومته المعرفية، وتحصيله (٦٩). وهو مشروع غاية في الأهمية، إذ يسعف المخططين والمنظرين في استظهار حال المتعلمين للبناء عليها، بناءً منهجياً دقيقاً.

وينقلنا المؤلف إلى أهم فصول الكتاب وهو تعليم النحو وتدريسه، في المدرسة والجامعة (٧٠).

ويختم المؤلف مصنفه بفضل في تعليم العروض (٧١).

ومن الملذ في هذا المشروع الجاد المهم، عرضه تجارب ذاتية، عاناها المؤلف وخبر محاسنها ومقابحها، وتمرس بها فوصفها علاجاً لكثير من الأدواء في تعليم العربية.

ولا يستغني متعلم أو عالم أو مدرس عن النظر في معطيات هذا المشروع للانتفاع بها، سواءً أيد أم فند ما فيها، لتكون مشكاة له في التعامل مع الأجيال التائقة إلى تعلم لغتها تعلماً سليماً شائقاً جاذباً، لا منفراً.

ومما يؤخذ على هذا المصنف أنه لم يلتفت إلى الطروحات المعاصرة في طرائق التعليم المحدثة التي يؤذن بها سدنة التطوير التربوي في الأردن.

ويؤخذ عليه أيضاً أنه ركز على طريقة واحدة فاقعة، وهي طريقة الوحدة، وما يناط بها من أساليب وآليات، ولم يلتفت إلى عرض طرائق أخرى، مضاهية، أو مؤازرة، ليظل للمتلقي حرية الخيار، والموازنة،

والربط بين الرأي والرأي الآخر.

ولكنه في منتهى الأطروحة التي يمثلها صورة متفائلة، ومشرقة ترسم الوجه الأسلم، والطريقة الأقوم، للأخذ بيد الناشئة بالتيسير وإطراح التعسير والتنفير، وربط الأنظار بالأداء، والتعلم الكلي الذي يتخذ من النص الكامل مظنة، وموئلاً، ومنطلق قراءة شاملة، مؤملاً أن نسيغ العربية إلى المتعلمين على طبق من اليسر والإقناع، وأن نسلكها إلى نفوسهم بأريحية مقبولة، وبطرائق شائقة تستفزهم، وتستنفر قواهم وقابليتهم، ليقبلوا باقتناع، وتمثل حصيف جاد. إذ يحار المرء، وهو يرى أن طالباً يذهب إلى روسيا فيتعلم الروسية في غضون سنة بإتقان وتمرس يؤهله لاستكمال علومه باللغة الروسية، على حين ينفق من عمره ما لا يقل عن خمسة عشر عاماً، في معايشة ممتدة للعربية، وبالكاد يقيم لسانه وقلمه على سنن العربية ونواميسها، عقب تخرجه من الجامعة، في قسم اللغة العربية. أليس هذا لافتا، ومحيراً ومعيباً!؟ أليس هذا، في التحقيق، داعياً إلى رجع النظر في كل فعاليات مؤسساتنا التعليمية، وطرائق التدريس، والمناهج، والمدرسين وفي التقنات الموظفة، والاستئناس بالآخر، وفي سر نشر لغاتهم، وتعثر أجيالنا في استيعاب لغتنا وتمثلها.

المشروع الرافد الأخير: توصيف... وحوسبة:

العربية، نحو توصيف جديد في ضوء اللسانيات الحاسوبية:

ويعد هذا المشروع دعماً قوياً للإشكالية الرئيسية وهي قضية التحول إلى الفصحى الذي يشكل الأوجه، والأسمى، والأهم، من قبل أن هذا المشروع يتوجه بالدرجة الأولى إلى شكل من أشكال التوصيف الحديث، ورسم صورة للغة العربية، خلافاً لما رسم الأوائل. رسم الأوائل صورة العربية للإنسان، ولكن المؤلف يحاول رسم صورة العربية للحاسوب.

ولقد عرض المؤلف مقاصد بحثه ومنهجه في أبعاد مشكلة البحث. فهو توصيف شامل بالشواهد الحاضرة على الماهية الغائبة، لكل معطيات المسائل النحوية والصرفية (٧٢). وهذه النمذجة القاصدة، تسعف في إدخالها في منظومة حوسبة المسائل النحوية والصرفية، وهو استشراف حصيف لمتغيرات العصر، وأفق متسع واعب لمستجدات الحياة، يسعف العربية في أن تستغرق متطلبات العصر وتواكبها، وتسهل التعامل معها وتعريبها للآخر.

ويشرع المؤلف الكريم في إقامة التوصيف لجملة من الأبواب والأدوات النحوية، بتصميم عيار تفصيلي في مثل الصفة والعلم، أو (ما) التعجبية بوضع خصائص محددة مشخصة أو مميزة لما يختلط بها، بالمثال واللامثال، لتحقق للمتلقي كل الصفات المميزة والتي تتيح له أن يحكم حكماً قاطعاً على الصفة أو العلم، أو (ما) التعجبية، أو الضمير المنفصل (٧٣). وينتقل عقب ذلك إلى توصيف خصائص الجملة، والروابط، وتمثيل الإعراب، في الأسماء ثم في وظائف الأسماء، وفي الحالة الإعرابية، وفي علامات الإعراب (٧٤).

ويعرض المؤلف نماذج وصفية في معايير الحال:

يقع الحال اسم فاعل، واسم مفعول، وصفة مشبهة... الخ. مشفوعة بالنماذج اللغوية المعبرة (٧٥).

ثم يورد عياراً لمواصفات التمييز (٧٦). ثم يورد توصيفات البنية في أقسام الفعل، والمشتقات، والمصادر (٧٧). والنسبة، ثم يدلف إلى توصيف النظم والإعراب والبنية (٧٨). في طرائق جذابة ولافتة تتيح القياس عليها. كل هذا المشروع يترمى غرضاً جليلاً وهو حوسبة العربية، وفي وكدنا أنه

مشروع عظيم يقتضي تضافر الجهود، والمثابرة في استكمال كل عناصر النمذجة والتوصيف لحوسبة العربية في كل مستوياتها، وهذه رؤية سامقة سنية، تستحق الإجلال والتشجيع والفزعة المعضدة لها؛ لفهم العربية، ودفع الإصر عن أنظمتها المتسقة.

ومشروع الدكتور نهاد يشبه أن يكون نهراً ممتداً له منبع أصيل، وهو الكتب التي ألمحنا إليها، وله جملة من الروافد الصغار في حجمها وهي جملة من البحوث المنشورة في الدوريات، لها شأن عظيم، بيد أنا سنرجئ الحديث عنها، من قبل أن المقام لا يسعف، إذ إن الدكتور العالم من هجيراه التبسط، والاستفاضة في قراءة دقائق المسألة بالتقليب والتنقير، والتغليق، مع الترابط والتماسك، إذ تحس رسيساً من التواصل واللحمة، وكأن بحوثه لزت في قرن واحد من التواشج، والتسلسل والممتع.

صفوة القول:

يعد الدكتور نهاد الموسى رمزاً من رموز الثقافة، ونموذجاً سامياً في مناهج الدرس اللغوي، ومدرسة فريدة في العربية، إن في الأنظار والطروحات والمشاريع، وإن في أسلوب المعالجة، وآلية الخطاب.

فمشاريعه العلمية تعلم العقل، وتربي الذوق، وتنمي اللغة والأسلوب، وترفد بثروة لغوية هائلة في الأساليب والصيغ والتراكيب.

فهو يمد القارئ بمنهج غاية في الدقة والإصابة، وبقدرة عجيبة على تشقيق الأفكار، ونسل الآراء، وتقليب المسألة على كل وجه، فهو يقرأ المنظور والمستور، ويقرأ المسطور وما وراء المسطور، وله نفس طويل في التقليب، والبحث والتفتيش والتسلسل والاستغراق، والاستشراف، فهو قادر أن يجعل من الحبة قبة، بأساليب علمية مقنعة، وأفكار متوالدة متناسلة متواشجة، يقيم اللحمة المتماسكة، والجسور المتينة بين الأفكار، التي يلاحقها حتى يأتي على كل ما يخطر وما لا يخطر على البال، يذكرنا بالجاحظ وإسماحه، والعقاد وعقده، والرافعي وتعمقه، وطه حسين وأريحيته. وأسلوبه عذب شائق رائق، فصيح مليح، يجمع بين قوة العبارة وأصالتها، وموروثها، والحداثة المنينة الصافية من غير إسفاف، فكتبه تعلم العقل، واللغة، والأسلوب، والمنهج، ما أحرى أجيالنا، أن يتوفروا عليها.

١. المشروع الرئيس الذي طرحه وهو قضية التحول إلى الفصحى مشروع رائد واعد طليعي، شأى غيره فيه، من قبل أنه يحس مبلغ ما يتحيف العربية، وما يتغولها من أدواء، في زمن العولمة، وما ينطوي عليه من تحديات تتربص العرب والعربية، فما أحرى الأمة أن تلتف إلى هذا المشروع، في القيادة، والإدارة وكل المؤسسات؛ لنحقق ما نصبو عليه من توحد لغوي ثقافي، يكون مقدمة لإقامة الوحدة السياسية الغائبة، في رحم المستقبل.

٢. رفد المؤلف مشروعه بمشاريع تتمحور حوله، وتتماهى معه، لخدمة العربية وإعلاء شأنها، كل ذلك ليكون مشروع التحول مقنعاً، وسائغاً، ومتقبلاً لدى الناس.

٣. مشروع توصيف العربية لحوسبتها أكثرها عصرية وما أحوج الأمة إلى تمثله، والتعاضد لتنفيذه، ليسهم في اطراد رقي العربية وحفظها من التآكل والإهمال، والبلى، وإسداء العون لكل من يسعى إلى تعليمها أو تعلمها تعليماً علمياً منهجياً، أو يحاول الترجمة من العربية وإليها، ويؤشر إلى أن العربية ليست بكيئة، وليست تتخلف عن كل التقنات التي توظف لخدمة اللغى في العالم، وهي لغة مرنة تسمح القياد، وتقبل التطبيع مع أحدث نظريات الحوسبة والعلم والترجمة.

٤. ينبغي الالتفات إلى الرموز اللغوية والأدبية والثقافية المعيشة بين ظهرانينا، وإذاعة أعمالهم

ومناهجهم، وأنظارهم، كيما ينتفع الناس بأدبهم وعلمهم، ومناهجهم، ولكي يصار إلى تعزيزهم، وشد هممهم لكي يواظبوا بسخاء على دراساتهم، وأفكارهم، التي تغني المجتمع وتؤصل لنهضة ثقافية لغوية، علمية شاملة، تؤتي أكلها بوعي وتحفز للموروث، والتفاف حول منظومة قيمنا الإرثية، مع انفتاح راشد على متغيرات الآخر، ودون تفريط بالهوية والثوابت، على تكالب التحديات، وتكاثر الاستهداف القاصد.

ومسؤولية أزمة اللغة العربية المعاصرة، وإشكالية التوجه إلى الفصحى توجهاً جمهورياً عمومياً مسؤولية المجتمع والمجمع والجامع ومؤسسات التربية، وأجهزة الإعلام، والمنظمات الثقافية، مسؤولية وجهاء النخبة، وبسطاء العامة مسؤولية الشاعر والعامل والناشر والكاتب والقارئ والمدرس والطالب، ولا يحتكر ذلك على المؤتمرات والندوات، وهي جعجعة ولا طحن، بل توصيات إعلامية احتفالية تظل في الهامش، والقطيعة مستمرة بين المواطن ولغته العربية الفصحى. متى يصحو العرب جميعاً إلى هذه الأزمة الكارثية، والمأساة الحقيقية التي تتحيف وجودنا اللغوي.

وإذا كان العرب طراً يعرفون أن هويتهم مستهدفة، ووجودهم معرض للخطر، ولغتهم مهددة بالانقراض والضعف والهجران، تتغولها تحديات العامية. والاغتراب، والجهالة بها، فأحر بأبنائها جميعاً، أن يخترطوا أقلامهم، وأن يمتشقوا أدواتهم، وأن يتوجهوا بالتخطيط العلمي المنهجي للتوحد اللغوي الذي يحفظ على الأمة إرثها وهويتها ووجودها.

والله المستعان على ما تصفون

هوامش البحث

١. الخروج من التيه: د. عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، العدد ٢٩٨، سنة ٢٠٠٣م، ص١٠.
٢. المرايا المقعرة، د. عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، ٢٧٢، عام ١٩٩٠، ص ٣٠.
٣. نفسه، ص ٣١.
٤. النهضة العربية والنهضة اليابانية: د. مسعود ضاهر، ٣٢٢، عالم المعرفة، ٢٥٢، عام ١٩٩٩م.
٥. قضية التحول إلى الفصحى: د. نهاد الموسى، ٧، الطبعة الأولى.
٦. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين، ٣٦٨/٢، ٢٩٦.
مصادر الشعر الجاهلي: د. ناصر الدين الأسد، ٤٢٩.
تاريخ الدعوة إلى العامية: د. نفوسة زكريا، ٣٢.
٧. الثقافة العربية في مواجهة تحديات قرن جديد: د. خالد الكركي، مجلة جرش الثقافية، العدد الأول، عام ٢٠٠٤م، ص ٥.
٨. اللغة والاقتصاد: فلوريان كولماس، ترجمة: د. أحمد عوض، ١٧٨، ١٥٧، سلسلة عالم المعرفة، رقم ٢٦٣، لعام ٢٠٠٠م.
٩. في اللغة العربية: د. أنيس فريحة، ١٧-١٩، ومن أسرار اللغة: إبراهيم أنيس، ص ١٠.
١٠. فقه اللغة: د. علي عبد الواحد وافي، ١٣٢.
علم اللغة: د. علي عبد الواحد وافي، ٢٥٧
١١. التنمية اللغوية: د. أحمد محمد معتوق، ص ٨٢ وما بعدها، سلسلة عالم المعرفة، ٢١٢، عام ١٩٩٦م.
١٢. لحن العامة: أبو بكر الزبيدي، تحقيق الدكتور عبد العزيز مطر، الكويت، ١٩٦٨م، ٤٠-٤١.
١٣. مقدمة ابن خلدون: بيروت، الطبعة الخامسة، ٥٤٦.
١٤. الخصائص لابن جني: ٨/٢، والمزهر للسيوطي ٣٩٦/٢.
١٥. سبب وضع علم العربية: السيوطي، ٢٠، وينظر الإيضاح للزجاجي، ٨٩، طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ٢١،

نشأة النحو: ١٩، والنحاة والحديث النبوي: د. موسى الشاعر، ١٣.

١٦. النهضة العربية والنهضة اليابانية: د. مسعود ضاهر، عالم المعرفة، ٢٥٢، سنة ١٩٩٩، ص ٣٥١ .

١٧. في اللغة العربية: أنيس فريحة، ٥٧-٥٨ .

١٨. قضية التحول إلى الفصحى: د. نهاد الموسى، ١١ .

١٩. كتاب الحروف للفارابي: ١٤٧، وقضية التحول، ٥١ .

٢٠. قضية التحول إلى الفصحى، ٦٤-٦٥.

٢١. نفسه، ١١٤ .

٢٢. نفسه، ١٢٤.

٢٣. الحصيلة اللغوية: د. أحمد محمد المعتوق، ٨٣-٨٤.

٢٤. البيان والتبيين: الجاحظ، ١/٨٦.

٢٥. الخصائص: ابن جني، ٢/١٥-١٦.

٢٦. المقدمة: ابن خلدون، ٥٤.

٢٧. الصاحبي في فقه اللغة: ابن فارس، ٦٢.

٢٨. الحصيلة اللغوية: د. أحمد المعتوق، ص ٤٨-٥٨ .

٢٩. قضية التحول إلى الفصحى: ١٥٤-١٥٥.

٣٠. المصدر نفسه، ١٦٧.

٣١. نفسه، ٢١٥ وما بعدها.

٣٢. نفسه، ٢٢٦ وما بعدها.

٣٣. نفسه، ٢٣٤

٣٤. الخروج من التيه: د. عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، نوفمبر ٢٠٠٣، ص ٨.

٣٥. المرايا المقعرة: د. عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، ٢٧٢، صفحة ٢١ .

٣٦. الدعوة إلى العامية: د. عبد الله بو خلخال، مجلة الآداب، قسنطينة، العدد ١، سنة ١٩٩٤، ص ١٦٣.

٣٧. المصدر نفسه، ١٦٧.

٣٨. عودة إلى المسألة اللغوية، د. الطاهر لبيب، جرش الثقافية، العدد الثاني، ٢٠٠٥، ص ٥٧.

٣٩. نفسه، ص ٥٦.

٤٠. اللغة العربية العظيمة... كيف نعززها: د. سمير أبو مغلي، مجلة الكاتب الأردني، العدد الرابع، ٢٠٠٥، ص ٢٥.

٤١. معلمة للتراث الأردني: د. عودة الله القيسي، الكاتب الأردني، العدد الرابع، ٢٠٠٥، ص ٦٤.

٤٢. النحو العربي والدرس الحديث: د. عبده الراجحي.

٤٣. نظرية النحو العربي: د. نهاد الموسى، ١١.

٤٤. نفسه، ٢٨-٢٩.

٤٥. نفسه، ٥١-٨٨.

٤٦. نفسه، ٨٩-١٠٧.

٤٧. الكتاب لسيبويه، ١/٢٥.

٤٨. الكتاب، ٢/٣١٤، أسرار العربية، ٢١٤.

٤٩. نظرية النحو، ١١٧.

٥٠. الكتاب، سيبويه، ١/٦٨، ٧٠.

٥١. معاني القراء للفراء، ١/٢٢، ٢٤، ٢٩ وما بعدها.

٥٢. النحو العربي والدرس الحديث: د. عبد الراجحي، ٥٤.

٥٣. الخصائص: ابن جني، ٢/٣٦٠.

٥٤. فقه اللغة: الثعالبي، ٣٢٢.

٥٥. دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ٦٤-٦٥.

٥٦. في نحو العربية وتراكيبها: د. خليل عمايرة، ٨٨.
أضواء على الدراسات اللغوية: د. نايف خرما، ٣٠٦.
قواعد تحويلية للغة العربية: د. محمد علي الخولي، ٩٢ وما بعدها.
٥٧. اللغة العربية وأبناؤها: د. نهاد الموسى، ١١-١٢.
٥٨. الخصائص: ابن جني، ٨/٢، ومن تاريخ النحو: سعيد الأفغاني، ٨.
٥٩. البيان والتبيين: الجاحظ، ٢١٩/٢.
٦٠. اللغة العربية وأبناؤها: د. نهاد الموسى، ١٤.
٦١. نفسه، ١٢٢ وما بعدها.
٦٢. نفسه، ١٢٣ وما بعدها.
٦٣. نفسه، ١٣٥-١٣٨.
٦٤. نفسه، ١٣٩ وما بعدها وينظر: لحن العامة: د. عبد العزيز مطر، ص ٣٠.
٦٥. نفسه، ١٥١ وما بعدها.
٦٦. النحو الغائب: د. عمر عكاشة، ٣٥ وما بعدها.
٦٧. الأساليب: د. نهاد الموسى، ١٩-٢٠.
٦٨. نفسه، ٦٤ وما بعدها.
٦٩. نفسه، ١٢١.
٧٠. نفسه، ١٨٧.
٧١. نفسه، ٢١٧ وما بعدها.
٧٢. العربية: د. نهاد الموسى، الطبعة الأولى، ص ٢٠ وينظر: الثقافة العربية وعصر المعلومات، مجلة عالم المعرفة، ص ٢٣٠.
٧٣. نفسه، ٧٦ وما بعدها.
٧٤. نفسه، ١٠٢ وما بعدها.
٧٥. نفسه، ١٦٨.
٧٦. نفسه، ١٨٠.
٧٧. نفسه، ١٩٧.
٧٨. نفسه، ٢٣٥.

ثبت المصادر والمراجع

١. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين، طبعة ثالثة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م.
٢. الأساليب مناهج ونماذج: د. نهاد الموسى، طبعة أولى، دار الشروق، عمان.
٣. أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: د. نايف خرما، عالم المعرفة، أيلول ١٩٧٨م.
٤. الإيضاح: الزجاجي، تحقيق د. مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ١٩٧٩م.
٥. البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة رابعة، بيروت.
٦. الثقافة العربية في مواجهة تحديات قرن جديد: د. خالد الكركي، مجلة جرش الثقافية، العدد الأول، ٢٠٠٤م.
٧. الحصيلة اللغوية: د. احمد محمد معتوق، عالم المعرفة، ٢١٢، عام ١٩٩٦م.
٨. الخروج من التيه: د. عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، ٢٩٨، الكويت، ٢٠٠٣م.
٩. الخصائص: ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت.
١٠. الدعوة إلى العامية: د. عبد الله بو خلخال، مجلة الآداب، قسنطينة، عدد١، سنة ١٩٩٤م.
١١. دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨م.
١٢. سبب وضع علم العربية: السيوطي، تحقيق مروان العطية، دار الهجرة، دمشق، ١٩٨٨م.
١٣. طبقات النحويين واللغويين: الزبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة ثانية، دار المعارف بمصر.
١٤. العربية: د. نهاد الموسى، المؤسسة العربية، بيروت، ٢٠٠٠م.

١٥. عالم المعرفة: ٢٦٣، عام ٢٠٠٠م.
١٦. علم اللغة: د. علي عبد الواحد وافي، طبعة سابعة، دار نهضة مصر، القاهرة.
١٧. فقه اللغة: د. علي عبد الواحد وافي، طبعة سابعة، دار نهضة مصر، القاهرة.
١٨. فقه اللغة: الثعالبي، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ١٩٧٢م.
١٩. في نحو اللغة وتراكيبها: د. خليل عمايرة، الطبعة الأولى، عالم المعرفة، جدة، ٩٨٤.
٢٠. قضية التحول إلى الفصحى: د. نهاد الموسى، الطبعة الأولى.
٢١. في اللغة العربية: د. أنيس فريحة، طبعة أولى، دار النهار، بيروت، ١٩٨٠م.
٢٢. الكتاب: سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت.
٢٣. لحن العامة: أبو بكر الزبيدي، تحقيق: د. عبد العزيز مطر، الكويت، ١٩٦٨م.
٢٤. مجلة جرش، العدد الأول، عام ٢٠٠٤م.
٢٥. مجلة الكاتب الأردني، العدد الرابع، ٢٠٠٥م.
٢٦. مقدمة ابن خلدون، بيروت، الطبعة الخامسة.
٢٧. قواعد تحولية للغة العربية: د. محمد علي الخولي، دار الفلاح، عمان، ١٩٩٩م.
٢٨. مصادر الشعر الجاهلي: د. ناصر الدين الأسد، ط٥، دار المعارف بمصر، ١٩٨٨م.
٢٩. من أسرار اللغة: د. إبراهيم أنيس، طبعة خامسة، الأنجلو المصرية، ١٩٧١م.
٣٠. المرايا المقعرة: د. عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، ٢٩٨، عام ١٩٩٠م.
٣١. من تاريخ النحو: سعيد الأفغاني، دار الفكر، ١٩٧٨م.
٣٢. النحاة والحديث النبوي الشريف: د. موسى الشاعر، طبعة أولى، ١٩٨٠م.
٣٣. النحو الغائب: د. عمر عكاشة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٣م.
٣٤. النحو العربي والدرس الحديث: د. عبده الراجحي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩م.
٣٥. نشأة النحو: الشيخ محمد الطنطاوي، دار المنار، ١٩٩١م.
٣٦. نظرية النحو العربي: د. نهاد الموسى، طبعة ثانية، دار البشير، ١٩٨٧م.
٣٧. النهضة العربية والنهضة اليابانية: د. مسعود ضاهر، عالم المعرفة، ٢٥٢، عام ١٩٩٩م.